

لاستطيع ذلك مهما حاولت

ياسيدى

— دلنا أين نغضى ليلتنا هذه لأننا

غرباء ولا نعرف هذه البلاد

— بكل ارتياح وسرور . ولقد

كنت عازماً أن أرسل فى هذه اللحظة

أحد أنساعى إلى باقى لقضاء أمر

وسيقودكم إلى مكان تراحون إلى الإقامة فيه

ثم أسر إلى أذكى خدمه بأن يقودهم إلى منزله

عن طريق آخر بينما يسير هو فى أقرب الطرق .

وبعجود وصوله أعد عشاء فاخراً فى حديقته ونسق

الموائد ثم وقف بالباب ينتظر ضيوفه . وفى هذه

الأناء كان الخادم يضلل الضيوف من طريق إلى

طريق دون أن يشعروا . وفى النهاية دلف بهم إلى

البيت . ولما شاهدهم سيده هرع إليهم قائلاً : « مرحباً

وأهلاً وسهلاً » ولما كاد صلاح الدين وشدة فطنته

فهم الحيلة وقال له : « إذا كان فى الامكان أن

يُشكر أحد لشرفه وكرمه وجدنا ما نشكوه منك

لأنك أطلت طريقنا لتتمكن من حسن الضيافة

ولطف الهاملة التى أسرتنا بها ولسنا لها أهلاً . فأجاب

الفارس الطريف وكان حكيماً فصيح اللجة : « إن

ما قابلتك به من الاحترام وحسن الضيافة لقليل

بجانب ما تستحقه أيها السيد الجليل إن لم يخدعنى

ظاهرك . ولو كنت فى غير باقى لساء نزولك . فلا

تأسف إذا طالت طريقك » وفى أثناء الحديث أقبل

رجال توريل ليكون الاحتفاء بهم جيلاً فخماً

واصطحبوا الأجانب إلى غرفهم التى أعدت لهم ،

ثم تناولوا العشاء ودارت عليهم المربطات وسامرهم

(٥)

صَلَاةُ الدِّينِ

لِلْقَصَصِ الْإِيطَالِيَّ بُو كَاتَشُو
بِقَلَمِ الْأُسْتَاذِ مُحَمَّدِ كَامِلِ حُجَّاجٍ

حينما تولى الامبراطور فريديريك الأول — إذا

صدقنا كثيراً من المؤرخين — استمد المسيحيون

لاجتياز البحر لفتح الأرض المقدسة . ولما بلغ الخبر

السلطان صلاح الدين ، وكان أميراً مرزاقاً بأنواع

الفضائل وملكاً لبابلاً ، عزم على مشاهدة استعداد

الأمرء المسيحيين ليتسكن من حسن الدفاع . فدبر

أمره بمصر ونظاهراً بالذهاب إلى الحج وسافر متخفياً

بملايس التجار ، ولم يصطحب غير صديقين وثلاثاً

من الخدم . وبعد ما جاب عدة بلاد مسيحية توغل فى

لومبارديا ليصل إلى جبال الألب . وعند ذهابه من

ميلان إلى باقى صادف شاباً نبيلاً يدعى توريل

ديستري قبيل النساء ، وهو من أهالى باقى . وكان

وراءه عدد عظيم من الخدم والكلاب والطيور

ايقضى بضعة أيام على ضفاف تيزان فى بيت يملكه فى

تلك الجهة . فظن هذا الشاب أن هؤلاء ليسوا إلا

أمرء أجنيبين يسيحون فى الأرض ، فعزم على

مقابلتهم بكل احترام . وحانت لذلك الفرصة إذ انبرى

أحد أتباع صلاح الدين ووجه هذا السؤال إلى خادم

من خدام الشاب : ماذا بقى من المسافة إلى باقى ؟

وهل فى الامكان الوصول إليها قبل إقفال أبوابها ؟

فرد توريل موجهماً الكلام إلى صلاح الدين :

مضيفهم بألد الأسار وأحبها

وكان صلاح الدين وصاحباه يجيدون اللاتينية فأعجبوا بفصاحة مضيفهم الذي لم يروا مثله في آدابه وبلاغة قوله ورقة شأله . وكانت لدى توريل أعظم فكرة عن ضيوفه . وأمسى مهموماً لأنه لم يتمكن من إعداد وليمة نعمة يدعو إليها البلاد ليزيد في بهجة الضيافة ، ولكنه عزم على إصلاح ذلك في الغد ثم اصطحب ضيوفه إلى الحديقة وأرسل رسولا إلى زوجته وكانت نبيهة كريمة . وفي أثناء السمر سأل بكل تأدب ضيوفه عن صفاتهم فأجاب صلاح الدين : « نحن تجار من قبرص ، وسنسافر إلى باريس لقضاء أعمالنا » فأجاب توريل بصوت جهورى : حمد الله الذى جعل بلادنا تنتج ظرفاء يشبهون تجار قبرص ! »

واستمر الحديث إلى أن جاء وقت العشاء وتركهم يأخذون مجالسهم على المائدة كما يريدون . ولم يكن العشاء فخما ولكنه كان جيدا جداً . وقد ساد عليهم الاخلاص والهناءة ولم يحكمثوا طويلا على المائدة ، وفكر توريل فى تعب ضيوفهم من وعشاء السفر فقادهم إلى أسرّتهم وذهب هو إلى سريره وقد قام الخادم الذى ذهب إلى باقى بما عهد به إليه خير قيام . وبمجرد ما سمعت امرأته الخبر أنبأت أصدقاء زوجها وجهزت وليمة فاخرة ودعت أعيان المدينة ووجهاءها واشترت مختلف الحرائر والوشى الذهبى والسجاجيد والفراء وجهزتها حسب إشارة زوجها

وفى الصباح ركب توريل جواده واصطحب الأجانب إلى مخاضة قريبة وسرم برؤية طيور صيده حينما تحلق فى الجو . ثم سأل صلاح الدين أن يرسل

معهم أحد أتباعه ليدلهم على طريق باقى فأجابه : « سأكون دليلكم فى هذه المرة لأنى مضطر لقضاء أعمالى هناك » ثم تابعوا السير فوصلوها فى الساعة التاسعة ، وظن المسافرون أنهم سينزلون فى زل عظيم ولكنهم دخلوا بيت توريل وشاهدوا نحو خمسين رجلا فى استقبالهم . وسار هذا الجمع أمامهم فقال صلاح الدين : « ما هذا الذى سألتناك إياه . ولقد أكرمتنا البارحة أكثر من اللازم فنرجو منك أن تدعنا تتمم طريقةنا

— إننى مدين للخط الذى أرسلك إلى البارحة ، وهو الذى أضلك طريقك ؛ ولكنى أرجو منك أن تتكرم بقبول تناول الغذاء معنا اليوم ؛ وإن هؤلاء الأصدقاء سيشفروننا إن سمحت بالجلوس إلى مائدتنا . فاضطر صلاح الدين إلى القبول ؛ فنزلوا ودخلوا دار مضيفهم فوجدوها منسقة بأبهى الأثاث وأنغر الرياش ؛ ثم غسلوا أيديهم وجلسوا إلى المائدة وقد جمعت أطيب الطام وأنغر الصحاف . ولو كان الضيف نفس الأمبراطور لما استطاعوا أن يهيشوا له أنغر من هذه الألوان ولا أبهج من ذلك التنسيق . ومع أن صلاح الدين وصديقيه قد اعتادوا البذخ ولكنهم دهشوا من هذا الاستعداد لأنهم كانوا يظنون أن مضيفهم ليس إلا من أفراد الأهل إلى العاديين لاسيذا عظميا . وبعد تناول الغذاء وتناول الحديث ذهب النبلاء الايطاليون ليستربحوا من عشاء القيط اللافح ، ولبث توريل وحده مع ضيوفه ؛ ثم دخل معهم إلى غرفة خاصة حتى لا يخفى عنهم أعز وأثمن ما عنده ؛ ونادى زوجه المحبوبة الفاضلة فأقبلت ترفل فى أنغر الأثواب مصحوبة بطفليها الجليين الرشيقين وسلمت على الأجانب بكل لطف فقاموا ورددوا التحية بأحسن منها

الذين يستمدون لها جته ولا أمام واحد منهم . وقد رأى أن لا فائدة من رفض الهدايا الجديدة فشكروا له حسن منعه وسافروا

وعزم صلاح الدين إن انتصر في حروبه أن يرد جميل توريل وكرمه الخاتمي ، وطفق يتحدث طويلاً عنه وعن زوجه وسمره الممتع وشريف سجاياه وبعد أن طاف بجميع جهات أوروبا الغربية رجع إلى الاسكندرية مزوداً بكل ما يلزمه من المعلومات وأنشأ يستعد للدفاع

وحيثما كان الوقت لسفر المسيحيين وأضحى الاستعداد على قدم وساق في كل مكان صمم توريل على اللحاق بجيوش الصليبيين رغماً عن توسلات زوجه وعبراتها المشهورة . وبعد ما جهز نفسه واستعد لركوب جواده قال لامرأته : « سأنبع يا عزيزتي الفرسان المسيحيين لسمادتي واطمئنان نفسي وأوصيك برعاية أملاكنا ومصالحنا . إنني معرض لكثير من الأخطار التي تحول دون عودتي ؛ وإنني أطلب منك منة واحدة وهي أن تنتظريني مهما كان مصيري عاماً وشهراً ويوماً من ابتداء سفري » — كيف أحتمل يا صديقي الآلام التي يسببها لي سفرك ؟ وإن لم توافني منيتي فأبقني أني سأحافظ على عهدي وعلى ذكرى توريل في حياتك وممانك » — إنني لأشك في إخلاصك ووفائك ؛ ولكنك ما زلت فتية جميلة نبيلة متحلية بجميع الفضائل . وقد عرف فيك الناس جميع تلك الشائيل ومن المحتمل أنه بمجرد إشاعة موتي يتقاطر إلى إخوتك وأهلك كثير من النبلاء لخطبتك ولا تستطيعين مقاومة أوامرهم ولهذا السبب طلبت منك الانتظار عاماً وشهراً ويوماً »

وأجلسوها وسطهم وطفة وابلاطفون الأطفال . وبعد تبادل الحديث سألتهم بكل تأدب عن صفتهم وعن الغرض الذي رحلوا من أجله فأجابوا بنفس الجواب الذي قالوه لزوجها . ثم قالت : « حبذا لو تفضلتم بقبول هذه الهدايا الصغيرة لأن النساء بطبيعتهن ضيفات الارادة ، فذلك بمطين الأشياء الصغيرة ؛ ولكنني قانعة بأنكم تقدرون حسن نيّتي قبل كل شيء دون أن تغيروا الهدايا أقل اهتمام » وقد أحضرت لهم أخضر الثياب مما يلبسه الأمراء وقالت لهم : إن زوجي قد حصل اليوم على ثوب مماثل وأنتم اليوم بعيدون عن نساتكم ورحلتكم بعيدة والتجار يميلون عادة إلى النظافة . ورأي النبلاء أن توريل لم يفته شيء فأجاب أحد الضيوف : « إن هذه الحلل ثمينة جداً ولا يمكن قبولها بسهولة إذا كان في استطاعتنا أن نرفضها أمام هذه الجمالة الحسنة واللطف الزائد » وكان توريل قد تركهم منذ هنبهة ، ثم أقبل فودعهم زوجه وقدمت كثيراً من الهدايا للخدم . ورجا منهم زوجها أن يقضوا بقية اليوم عنده . وبعد أن أخذوا قسطهم من الراحة ركبوا الجياد للتريض في المدينة وعند عودتهم جهزوا لهم عشاء فخماً ثم طفقوا يتسامرون إلى أن كان وقت النوم فذهبوا إلى مضاجعهم

ثمضوا في الصباح إلى جيادهم ليسافروا فوجدوا مكانها خيلاً قوية جميلة بعدد حتى الخدم ، فدهش صلاح الدين وقال حينما عطف على أصحابه : « أقسم بالله إنه لا يوجد رجل كامل الفضائل حسن الجمالة بصير بالأمور مثل هذا الرجل . ولو كان ملوك النصرانية مثل هذا الفارس في شئله ومكارم أخلاقه لما استطاع ملك بابل (صلاح الدين) أن يثبت أمام

فقال له : « إنى ياسيدى من لومبارديا من مدينة تسمى باي » وقدر جح هذا الجواب ظن صلاح الدين ؛ وقال فى نفسه : « لقد أناح لى الله الفرصة لأعرفه بما تركه لطفه من الأثر فى نفسى » وفى الحال أمر بتغيير جميع ملابسه فى غرفة كبيرة وصحبه إليها قائلا : « انظر جيداً جميع هذه الملابس عليك تعرف منها شيئاً » فشرح الايطالى طرفه فى جميع الملابس فلمح الحلل التى منحتها فيها مضى زوجه إلى ضيوفه وقال : « إننى ياسيدى رأيت حلتين تشبهان ما أعطيته لثلاثة من التجار استضافوني » فلم يتمالك صلاح الدين من كبح نفسه وعاقبه بخنو قائلا : « أنت مستر توريل دبستري وأنا أحد التجار الذين منحتمهم أصرانك هذه الحلل . ولقد حان الوقت لأريك بضائمي كما قلت لك عند سفري »

شمر توريل فى اللحظة بالفرح والحجل المجىء مثل هذا السلطان فى ضيافته والحجل لاستقباله استقبالا عده غير لائق بمركزه

ثم قال له صلاح الدين بحماسة : « أيها الصديق العزيز ، أما وقد أرسلك الله إلينا فتيقن أنك أنت وحدك السيد هنا لأننا » وبعد ملاطفته ألبسه أخضر الحلل اللوكية واصطحبه أمام كبار رؤساء بلاطه وقدمه إليهم أحسن مقدمة ، ثم أثنى عليه أطيب أنواع الثناء وقال لهم : احترموا كما تحترموني . فإطاع الكل إشارته ولا سيما الذين اصطحبوه فى ضيافة توريل

إن سرعة انتقال توريل من الأسر إلى المجد ألهته عن أمور لومبارديا ووطن أن عمه استلم رسائله وصادف فى اليوم الذى أسر فيه صلاح الدين آلافاً من المسيحيين أن مات منهم أحد النبلاء المسمى

— سأعمل كل ما أستطيعه لتنفيذ وصيتك .

وإن أرغمت على الزواج فلا يستطيع أحد أن يمنعني من العمل بوصيتك . وإنى أسأل الله أن يقيقك لنا ذخراً وسنداً » ثم بكى الزوجان وزعت امرأته خائفاً من أصبعها وقدمته لزوجها قائلة : « إن مت قبل رؤيتك فليذكرك بى هذا الخاتم » ثم ودعهم توريل وسافر . ولما وصل إلى جنده ركب البحر مع فرقته . ولما بلغ عكا التحق بجيوش المسيحيين . ولقد كان نصيب أغلب هذه الجيوش الموت ونصيب الباقي الأسر وقادوم إلى عدة مدن . وكان توريل فى من لم ينجوا من حسن حظ صلاح الدين أو من مهارته . ولا يعرف السبب الذى يعزى إليه هذا النصر العام والنجاح السريع . ولقد اقتادوا توريل إلى سجن الاسكندرية ، وهناك لم يكن معروفاً لأحد ، وخشى أن يعرف . ولقد فكر فى الطيور لأنه يحسن تربيتها وتدريبها

لم يعرف توريل هذا الأمير ولم يفكر إلا فى وطنه الذى حن إليه ، وقد هم أن يهرب صراراً ولكنه لم يتمكن من تنفيذ فكرته

وفى هذه الأثناء حضر بعض السفراء الجنوبيين وافقدوا عدداً من مواطنهم . وحينما تهبأوا للسفر أعطاهم خطاباً لامرأته يرجوها فيه أن تنتظره ورجا من الذى عهد إليه الخطاب أن يسلمه إلى عمه الابيه سان بيير ليوصله بنفسه إلى عقيلته

وفى ذات يوم كان صلاح الدين يتحدث مع توريل فى شئون طيور صيده فبدرت منه ابتسامة مصحوبة بإشارة كان لاحظها صلاح الدين عند مضيغه فى ياقى ، فخلق فيه فمأودته الذكرى أنه رأى هذا الوجه يوماً ما . فقال له : « من أى البلاد أنت ؟ »

المائم . ثم ذهب صلاح الدين مع كثير من الأصراء إلى الجناح الذي أقام فيه ضيفه وقال له والدمع يترقرق من عينيه : « أيتها الصديق العزيز ، قد اقتربت ساعة فراقنا ولا أستطيع أن أصحبك أو أرسل في صحبتك أحداً لطول السفر . ورجائي ألا تنساني وأن تزورني مرة ثانية حينما تنتظم أمورك ؛ وأمل أن تستمر المكاتبة بيننا » فحنقت توريل العبرات وقال بعض كلمات متقطعة من تأثره : « إنني لأنسى معروفك وفضلك وشمالك النادرة . ثم عانقه صلاح الدين مرات ثم ودعه باقي الأصراء وصحبوه إلى الغرفة المدة له

ثم استعد الساحر لعمله وأقبل طبيب وبيده شراب قائلًا لتوريل : حبذا لو شربه ليقويه . ثم شربه فنام بعد قليل . ثم حمل إلى السرير المعد له وأضجموه ووضع صلاح الدين بجانبه تاجاً فخماً لزوجته ووضع بيده خاتماً ثميناً بفص نادر ، وقلده سيفاً مرصعاً بأجل الأحجار الكريمة وصندوقين صغيرين من الذهب مملوئين بأندر الحلى التى لا يسع المقام وصفها ؛ ثم عانقه مرة ثانية وقال للساحر : هيا إلى العمل . فغاب السرير في الحال عن عيون الحاضرين ، وبعد لحظة كان توريل في كنيسة سان بيير في بافى

دقت النواقيس مؤذنة بطالع النهار وكان توريل مافتي نائمًا . ولما دخل السكاهن وبيده مصباحه لمح فجأة هذا السرير الفخم الذى يأخذ الأبصار ، فارتعدت فرائصه وأسرع يمدو يارباً وذهب إلى القفس والرهبان وقص عليهم الخبر فقالوا له : إنها أوهام استحوذت عليك ، ثم ذهبوا جميعاً وأوقدوا كثيراً من الشموع فرأوا السرير وعاليه رجل نائم وطفقوا يختبرون هذه الجواهر من بعيد دون الاقتراب منها

« مسير توريل دو دينى وكان غير معروف في الجيش فظن الناس أنه توريل ديستري لتشابه الاسم الأول وتأكد ظنهم بأمر توريل فأذاع بعض الابطالين نعيه في بلادهم وأكدوا أنهم شيعوا جنازته

وكان لخبر موته الكاذب وقع سيء عند زوجه وأقاربه وأصدقائه . وظلت زوجه تذرف العبرات الحارة أياماً طوالاً ، وبعد انقضاء عدة أشهر خطبها للزواج كثير من أعيان بلدها وألح عليها أهلها بالقبول فرفضت مدة طويلة وقالت لهم : لا بد من احترام المدة التى اشترطها زوجها قبل سفره

وبينا هذه الحوادث تمر في بافى كان توريل يفكر في امرأته وفي قرب انتهاء المدة التى اتفق عليها مع زوجه ففقد صوابه من الفيط والحق ، وأضناه الحزن حتى لزم فراشه وتغنى الموت ليتخلص من آلامه

وحينما سمع بمرضه صلاح الدين وكان يحبه حباً جماً أسرع لعيادته وتوسل إليه أن يخبره عن سبب مرضه ، فاعترف له بالحقيقة ، فلامه لتأخره في الاعتراف وطمانه قائلاً : « تأكد أنك ستكون فى بافى في اليعاد المحدد ، فرجا من الأمير أن يعجل التنفيذ .

دعا صلاح الدين ساحراً بارعاً جرب من قبل مهارته وكلفه بنقل توريل وهو نائم على سريريه في سواد ليلة واحدة إلى بافى . فأجابه الساحر بأنه يلزم أن يعطيه أولاً شيئاً منوماً ثم يباشر عمله .

وفي الفند أراد السلطان أن يسفر ضيفه فوضع في إحدى الغرف سريراً فخماً مزدهناً بالخمير المزركش بأسلاك الذهب واللالى السكبيرة والماس الثمين ، وكان هذا السرير آية في جمال الصنع والفخامة ، وأمر باللباس توريل حلة نفحة وعمامة من أفخر

وفاته التي كان لا يشك فيها أحد
ثم فكر توريل أنه قد حان الوقت لاختبار زوجه
إن كانت محافظة على ذكراه ، فوضع في أصبعه الخاتم
الذي قدمته له عند سفره ككذلك منها ، ثم دعا
الخدم الذي خدمه وقال له : « اذهب وقل للعروس
عن لسانى بأنه قد جرت العادة في بلادنا أن الأجنبي
إن حضر عرساً فإن العروس لتبرهن له على
إكرام وفادته وحسن رعايته تقدم إليه كأساً مترعة
من النبيذ فيشرب منه ما يشتهي ثم يفضيه ويرده
إلى العروس فتشرب السور . ولتبرهن له على عطفها
عليه أمرت أن تقدم إليه كأس كبيرة من النبيذ
وكان توريل قد وضع الخاتم في فمه ثم شرب الكأس
كلها وألقى من فمه الخاتم في الكأس دون أن يشعر
به أحد وعطاها ووردها إليها ، فكشفت الكأس ولحت
فيه الخاتم فعرفته ثم حدثت النظر في هذا الغريب
وصرخت صرخة دوى لها السكان وقلبت المائدة التي
كانت أمامها وانطلقت كالسهم وارتعت في أحضان
النيل قائلة : « هذا هو في الحقيقة سيدى وزوجى
وعزيرى توريل » ثم عانقته عناقاً غنياً ولم تحسب
حساباً للحاضرين . ثم قص كل منهما حديثه وأخباره
من يوم سقره للآن وذهب الزوجان إلى منزلها وتركوا
العروس وشواره وهو يقلب كفيه من الحسرة ،
ومرع جميع من في المرس إلى بيت توريل بمظاهر
الفرح والبشر ، وأقبل الأصدقاء والخلان يهنئونه
بالعودة وسط احتفال عظيم وموائد نصبت عليها كل
ما تشتهي الأنفس وتلذذ العيون ؛ ثم أعطى توريل
جانباً من التحف لمزاجه عوضاً عن نفقات المرس
وجانباً آخر لعمه رئيس الكنيسة وعاش مع زوجه
في هناءة وسعادة أعواماً طويلاً محمد لائل مهباج

وليسها . ثم استيقظ توريل وتهدأ تهاداً طويلاً
فدعر القسس والرهبان وركنوا إلى الفرار . ثم
فتح توريل عينيه فوجد نفسه في المكان الذي
رجا صلاح الدين أن يرسله إليه ، ولج بجانبه من
صنوف الجواهر والحلى والتحف ما أكد له سمو
أخلاق صلاح الدين وكرم الخاتى . وقد لمح
القسس وهم يولون الأدبار ذعراً منه فنادى رئيسهم
باسمه قائلاً : أنا توريل ابن أخيك ، فزاد ارتعاد
الرئيس لأنه كان يظنه ميتاً ، ثم رسم علامة الصليب
واقترب من السرير . فقال له توريل : « م تخاف
يا أبتاه ؟ إننى حى وأتيت من وراء البحار » فاطمأن
عمه وراه لا بساً حلة عربية فخمة وعمره جيداً رغماً
من لحيته التي أرسلها ثم قال له : « أهلاً وسهلاً
يا بنى ومرحباً ، لقد ذعرنا في بادى الأمر لأنه
لا يوجد أحد في جميع المدينة لا يعرف خبر موتك .
وقد هدد زواجك أقاربها فاضطرت للاذعان بالزواج
وستكال اليوم وقد تم الاستعداد للحفلة والمرس »
فأسر توريل للرئيس وجميع الكهنة ألا يخبروا
أحدًا بمودته ، ثم وضع جواهره وتحفه في مكان
أمين وأخبر عمه بقصته من أولها إلى آخرها ، ثم
قال له : إننى أحب أن أذهب إلى المرس لأختبر
حالة زوجى وهياتها . فأرسل إلى الخطيب يستأذنه في
الحضور مع أحد أصدقائه فقبل بكل ارتياح . فذهب
مع عمه بمحلته المربية فأتجهت إليه الأنظار ولكن
لم يعرفه أحد . ولما سئل رئيس الكنيسة من هذا ؟
قال : سفير صلاح الدين لدى ملك فرنسا ، ثم
أجلسوه أمام زوجه بالمصادفة فتفرس فيها فوجدوها
عابسة مهمومة ، وكانت تطيل فيه النظر دون أن
تهتدى إلى شيء بسبب حلة المربية وذئوع